

كراسات مستقبلية

سلسلة غير دورية تصدرها المكتبة الأكاديمية تعنى
بتقديم الإجهادات الفكرية والعلمية ذات التوجه المستقبلى
رئيس التحرير أ.د. أحمد شوقي
مدير التحرير أ. أحمد أمين

المراسلات : المكتبة الأكاديمية

١٢١ شارع التحرير - الدقى - القاهرة - ت : ٣٤٨٥٢٨٢ - فاكس : ٣٤٩١٨٩٠

مغزى القرن العشرين

تأملات حول ثورة العلم والتكنولوجيا

obeykandi.com

مغزى القرن العشرين

تأملات حول ثورة العلم والتكنولوجيا

تأليف

د. أحمد شوفى

جامعة الزقازيق



الناشر

المكتبة الأكاديمية

حقوق النشر

الطبعة الأولى : حقوق الطبع والنشر © ١٩٩٩ جميع الحقوق محفوظة للناشر :

المكتبة الأكاديمية

١٢١ شارع التحرير - الدقى - القاهرة

تليفون : ٣٤٨٥٢٨٢ / ٣٤٩١٨٩٠

فاكس : ٣٤٩١٨٩٠ - ٢٠٢

لا يجوز استنساخ أى جزء من هذا الكتاب بأى طريقة كانت

إلا بعد الحصول على تصريح كتابى من الناشر .

رقم الإيداع ٩٩/٣٣٩٧

ISBN 977-281-090-5

مطابع الدار الهندسية

إهداء

إلى

«الإجتهد»

الفريضة الرائعة ، التي

يحاول البعض - غرضاً أو مرضاً -

تغييبها من ثقافتنا العربية الإسلامية،

التي إزدهرت إبان قوته وضعفت

بعد كبوته.

أ.شر

obeykandi.com

تزايدت في السنوات الأخيرة، عمليات إصدار كراسات تعالج في مقال تفصيلي طويل (Monograph) موضوعاً فكرياً أو علمياً هاماً. وتتميز هذه الكراسات بالقدرة على متابعة طوفان الاتجاهات والمعارف الجديدة، في عصر يكاد أن يحظى باتفاق الجميع على تسميته بعصر المعلومات.

تعتمد هذه الميزة على صغر حجم الكراسات نسبياً بالمقارنة بالكتب، وتركيز المعالجة وتماسك المنهج والإطار. ولأهمية الدراسات المستقبلية في هذه الفترة التي تشهد تشكياً متسارعاً لملامح عالم جديد، سعدت بموافقة المكتبة الأكاديمية وحماسة مديرها العزيز الأستاذ، أحمد أمين لإصدار كراسات مستقبلية، كسلسلة غير دورية مع تشريفي برئاسة تحريرها.

والملاح العامة لهذه السلسلة، التي تفتح أبوابها لكل المفكرين والباحثين العرب، تتلخص في النقاط التالية :

انطلاق المعالجة من توجه مستقبلي واضح (Future-oriented) أى أن يكون المستقبل هو الإطار المرجعي للمعالجة، حيث يستحيل إستعادة الماضي، ويعانى الحاضر من التقادم المتسارع بمعدل لم تشهد البشرية من قبل.

الالتزام بمنهج علمي واضح يتجاوز كافة أشكال الجمود الإيديولوجي، مع رجاء ألا تتعارض صرامة المنهج مع تيسير المادة وجاذبية العرض.

الإبتكارية Creativity المطلوبة في الفكر والفعل معاً، في زمان صارت النصيحة الذهبية التي تقدم فيه للأفراد والمؤسسات : تجدد أو تبدد Innovate or evaporate !!

الإلمام العام بمنجزات الثورة العلمية والتكنولوجية، التي تعد قوة الدفع الرئيسية في تشكيل العالم، مع استيعاب تفاعلها مع الجديد في العلوم الاجتماعية والإنسانية، من منطلق الإيمان بوحدة المعرفة.

مقارنة الموضوعات المختلفة سواء أكانت علمية أو فكرية مؤلفة أو مترجمة، من منظور التنمية الشاملة والموصولة أو المستدامة Comorehensive and Sustainable Development ، التي تتعامل مع الإنسان كجزء من منظومة الكوكب، بل والكون كله.

كراسات هذه السلسلة تستهدف تقديم رؤيتنا لمستقبل العالم من منطلق الإدراك الواعي لأهمية التنوع الثقافي، التي لا تقل عن أهمية التنوع البيولوجي الذي يحتفى به أبيات التنمية الموصولة. إننا نقدم رؤيتنا كمصريين وعرب ومسلمين وجنوبيين للبشرية كلها دون ذوبان أو عزلة، فكلاهما مدمر ومستحيل.

د. أحمد شوقي

هذه الكراسية :

تمثل إجهاداً في قراءة آثار ثورة العلم والتكنولوجيا ودورها في تشكيل حصاد القرن العشرين، وكذلك دورها المحوري كقوة دافعة للتغيير في الحاضر والمستقبل المنظور. إنها دعوة للحوار حول الكثير من الأفكار المطروحة في الساحة، ليس بهدف التكرار والإجترار، ولكن بهدف الإضافة والتكيف الإيجابي، تكيف المشاركة المشروعة، دون الإكتفاء بالرفض المراهق أو الإستسلام المنافق. وكدعوة صادقة للحوار الموضوعي، فكل رأى في هذه الكراسية، مطروح للإتفاق الذي يدعمه والإختلاف الذي يثريه، وفي كل خير.

أحمد شوفي

يناير ١٩٩٩

المحتويات

١١	اللحظة الرباعية	I
١٤	ملامح فى مشهد العلم والتكنولوجيا	II
١٤	أ - ملامح فى مشهد العلم	
١٤	- التقاء الصغير والكبير	
١٥	- التقاء التحدد واللاتحدد	
١٥	- التقاء النظام والفوضى (الشواش)	
١٦	- التقاء الحى وغير الحى	
١٦	- التقاء الذاتى والموضوعى	
١٨	ب - تكنولوجيايات القرن الحادى والعشرين	
٢٠	- تكنولوجيا الوراثة	
٢٢	- تكنولوجيا الطاقة	
٢٣	- تكنولوجيا المواد	
٢٥	- تكنولوجيا المخ	
٢٦	- تكنولوجيا المعلومات	
٢٨	ج - ملامح فى مشهد التكنولوجيا	
٢٩	- الإختراق وكسر الحواجز	
٣٠	- البيئية والعبورية	
٣٠	- المنظوماتية والتعاضدية	
٣١	- الهندسة والتوجيه	
٣٢	- النقد والتقادام	

٣٣	مغزى القرن العشرين	III
٣٣	أ - التفسير والتأويل	
٣٣	- أسئلة الأصول	
٣٣	- إعادة تفسير الظاهرة البشرية	
٣٤	- التفسير العلمى والتكنولوجى للتاريخ	
٣٤	- مفهوم القوة	
٣٥	- الحقيقة	
٣٥	ب - الهندسة والتوجيه	
٣٥	- هندسة الفكر	
٣٦	- هندسة الهوية	
٣٦	- هندسة الأنشطة	
٣٦	- الكوكبة وهندستها	
٣٧	هندسة المستقبل	

تحت هذا العنوان الموحى، وفي منتصف الستينات من القرن الحالى الذى يستعد للرحيل، كتب كينيث بولدنج (١٩٦٤) كتابا بديعا، أفرد فيه لدور العلم والتكنولوجيا كقوة دافعة ومشكلة لحياة البشر مساحة كبيرة. ولا يقل عن ذلك أهمية، تأكيده على أهمية الوعى المجتمعى بهذا الدور، بصورة تسمح بالمشاركة فى التوجيه السليم للثورة العلمية والتكنولوجية التى شهدها هذا القرن. ومن أكثر القصص طرافة وذكاء للتعبير للتعبير عن ذلك، ما ذكر عن الفيزيائى الذى كان يتحدث عن دور أينشتاين قائلاً أنه قد أضاف البعد الرابع (الزمان) إلى أبعاد الوجود الثلاثة التى نعرفها، حيث قاطعه أحد المستعمرين، مطالباً إياه بعدم نسيان البعد الخامس.. المجتمع!!! وإذا كان بولدنج قد قدم رؤية بعد منتصف القرن العشرين بقليل، فمن المفيد أن نعيد النظر فى مغزى هذا القرن قرب نهاية. ولنبدأ بالحديث عن مغزى هذه النهاية، التى تمثل ما يمكن أن نصفه بكونه لحظة رباعية، فريدة فى تاريخ البشرية.

I. اللحظة الرباعية

علاقة البشر بالزمان تختلف عن علاقة الكائنات الأخرى به جملة وتفصيلاً. هذه الكائنات قد تمر بشكل غريزى بمواسم التزاوج والهجرة والبيات الشتوى والازهار ونضج الثمار... الخ. أما الإنسان، وهو بالمناسبة يتزاوج دوماً ويهاجر دوماً، فهو يقيس الزمان، ويضع له البدايات والنهايات، ويملاً أيامه بالأحداث المتراكمة، ويسجلها تاريخاً يزيّف دوماً!!! وقد صار من الموروث الثقافى لعلاقة الإنسان بالزمان الإهتمام بالنهايات، وما يعقبها من بدايات جديدة. إنه يحتفى بنهاية كل عام، أملاً فى عام جديد أفضل. وهكذا الحال بالنسبة لكل عقد من العقود، ولكل قرن من القرون، حتى أن هنالك العديد من الدراسات عن نهايات القرون بالذات، وما يصاحبها من توقعات متفائلة ومتشائمة. ومع انتشار التقويم الميلادى، لانه تقويم الحضارة الغالبة كما علمنا شيخنا ابن خلدون، نلاحظ أن اللحظة الأخيرة فى القرن العشرين لا تمثل فقط نهاية لعام وعقد وقرن، بل وألفية أيضاً.. الألفية الميلادية الثانية، إنها «لحظة رباعية، لم يشهد البشر مثلها منذ ألف عام!!! لحظة تؤرخ ليزوخ حضارة جديدة يقوم البشر بصياغتها وهندستها (ألفين وهابدى توفلر، ١٩٩٥).

وهنا يتساءل المرء عن حصاد هذه الألفية، وعن حصاد القرن العشرين، ليس فقط باعتباره آخر قرونها، ولكن باعتباره أروعها وأفضعها فى نفس الوقت. ولأن

الحصاد هنا هو حصاد بشري بالأساس، فلنبدأ بالإنسان، لنرى كيف تضاعفت أعداد البشر وزاد بالتالي تأثيرهم عبر الزمان والمكان (الزمان) خلال هذه الألفية. تورد مجلة ناشيونال جئوجرافى الشهيرة (أكتوبر ١٩٩٨) هذه التقديرات:

- فى بداية الألفية، ومع مطلع القرن الحادى عشر (عام ١٠٠٠ بعد الميلاد) بلغت أعداد البشر ٣٠٠ مليوناً.

- وفى مطلع القرن الحادى عشر ٣٣٠ مليوناً.

- وفى مطلع القرن الثانى عشر ٣٨٠ مليوناً.

- ومع مطلع القرن الثالث عشر ٤٢٠ مليوناً.

- وفى مطلع القرن الرابع عشر ٤٦٠ مليوناً.

- وفى مطلع القرن الخامس عشر ٥٠٠ مليوناً.

- وفى مطلع القرن السادس عشر ٦٠٠ مليوناً.

- وفى مطلع القرن السابع عشر ٧٢٠ مليوناً.

- وفى مطلع القرن الثامن عشر، وفى الوقت الذى أطلق فيه مالتوس تقريباً (١٧٩٨) تحذيره الشهير عن زيادة السكان عن الموارد المتاحة، بلغت البشرية البليون الأول.

- أما فى مطلع القرن الماضى (التاسع عشر) فقد بلغت ١,٧ بليوناً.

- والمتوقع أن تدخل الألفية الثالثة (بعد العام ٢٠٠٠) وقد تجاوزت ستة بلايين.

ما معنى ذلك؟ إن أعدادنا قد تضاعفت خلال قرنين فقط من بليون الى ستة بلايين، وأن أغلب سكان المعمورة منذ ظهور الإنسان، يعيش على سطح الكوكب اليوم، ويتزايدون بمعدلات توحى بتضاعف عددهم خلال القرن الأول من الألفية الجديدة.

ولأن زيادة الأعداد تناسبت كما ذكرنا مع زيادة النشاط وتنوعه، فقد شهدت الألفية الثانية العديد من الأحداث الهامة، ذات المغزى التاريخى الكبير فى مسيرة البشر. يذكر كارلوس هرناندىز وراشيمى مايور، محرراً كتاب «معد مع المستقبل» (١٩٩٨) من بينها، بالإضافة الى التضاعف السكانى، نشأة العلم الحديث والجامعات بشكلها الحالى وتطور الطب والطيران وإنشطار الذرة، مروراً باكتشاف

كروية الأرض والصورة الحديثة للكون. وهي قائمة يمكن أن نضيف اليها الكثير، وأغلب ما يضاف يمكن أن يعد من منجزات القرن الأخير (الثورة العلمية والتكنولوجية - التواجد لأول مرة في مكان آخر بالكون غير الأرض، بالهبوط على سطح القمر، وإرسال الأجهزة الى أماكن أخرى، في برامج الفضاء العديدة. - تطور أسلحة الدمار الشامل - القدرة على الهندسة الوراثية للكائنات - القدرة على تشكيل مواد جديدة - الوعي بمشاكل البيئة، وبعضها ناجم عن التقدم العلمي والتكنولوجي نفسه.. الخ).

إن الإقتراب بصورة اكبر من نهاية القرن العشرين، وفي هذه اللحظة الرباعية، يقدم صورة ذات ملامح شديدة الخصوصية والغرابية. فمع كونه - أو بسبب كونه - قرن الثورة العلمية والتكنولوجية، نجد أنه قرن الحروب العالمية المدمرة. إن أكثر من ٩٠٪ من العلماء الذين عرفتهم البشرية يعيشون في عالم اليوم، وأغلبهم يعمل بشكل مباشر أو غير مباشر في تكنولوجيا السلاح والدمار. كما أن الإنفجار المعرفي والتراكم المعلوماتي بلغا فيه درجة من التسارع يصعب استيعابها. ويكفي ان نذكر في معرض ذلك مقارنة واحدة فقط. لقد استغرقت عملية تضاعف المعلومات مرة واحدة ١٧٥٠ سنة (سبعة عشر قرنا ونصف) منذ بداية الألفية الأولى وحتى منتصف القرن الثامن عشر في الألفية الثانية ثم استغرقت قرنا ونصف القرن (من ١٧٥٠ - ١٩٠٠) ليتضاعف مرة أخرى... ونصف قرن فقط (من ١٩٠٠ الى ١٩٥٠) لتضاعف مرة ثالثة) بينما يستغرق ذلك اليوم اقل من عشر سنوات، وهو في بعض فروع العلم اقل من ذلك بكثير (روث آن ديفيز، ١٩٨٦)!!! لقد زادت الانتاجية في كل المجالات بشكل يفوق الخيال. ومع ذلك، تعالوا نقرأ مع هرناندرز ومايور السابق ذكرهما بعض المؤشرات السلبية لحصاد هذا القرن:

- استنزاف الموارد الطبيعية، بشكل يهدد حق أجيال المستقبل فيها، مع استمرار الزيادة السنوية للسكان بمقدار ٨٥ مليونا أو أزيد.
- فقدان التنوع الحيوي مع إنقراض الأنواع ونظم الغابات الداعمة للحياة (١٦ ألف هكتار من الغابات يفقد سنويا، ومعه ٥٠,٠٠٠ نوع من النباتات والحيوانات والطيور).

- قائمة بشعة للأمراض الاجتماعية: ١,٣ بليون انسان يعيشون ظروفًا غير انسانية بدخل يقل عن دولار واحد يوميا - ٩٦٠ مليونا يذهبون الى الفراش (إن

وجدوه) وهم جوعى - ٢ بليون انسان لا يحصلون على الماء النظيف - ٦٠,٠٠٠ طفل يموتون يوميا بسبب سوء التغذية والامراض التي يمكن منعها - اعداد هائلة من العاطلين والأميين، و ١,٢ بليون بدون مأوى أصلا، أو يعيشون في ظروف شديدة القسوة والرداءة. وكل هذه الأمراض الاجتماعية لا تنجم من نقص الانتاجية، ولكن كما تؤكد ناشيونال جئوجرافى والتقارير الدولية الموثقة، تنجم بسبب سوء التوزيع وغير ذلك من الأسباب الايديولوجية والسياسية. أى أن العيب ليس فى منجزات الثورة العلمية والتكنولوجية ولكن فى توظيفها المجتمعى على المستوى الكوكبى. إن الانسان ينسج خيوط التقدم والتخلف فى مسيرته بنفس الهمة والنشاط. ولعل فهما اكبر وأفضل للظاهرة الإنسانية، يؤدى الى علاج هذا الخلل.. الا أن هذا الفهم لن يتم إلا بواسطة الإنسان نفسه. وهذا هو أكبر تحديات اللحظة الرباعية القادمة.

بعد استعراضنا للحظة الرباعية التى يعيشها الإنسان، وتأكيدنا على أن القرن العشرين بما أحدثه من ثورة علمية وتكنولوجية قد وضع بين أيدينا المشكلة والحل، نود أن نورد ملامح هذه الثورة باختصار، نرجو ألا يكون مخلا. لقد صار التقدم العلمى والشكل الذى يوظف به مجتمعيا على المستويات المحلية والاقليمية والعالمية، هما القوة الدافعة للتغير المتسارع الذى نشهده، حتى أن الإتفاق يكاد يكون كاملا على أن التغير هو الثابت الوحيد فى عالم اليوم. ورغم صعوبة الفصل بين العلم والتكنولوجيا، كما سندكر فيما بعد، إلا أننا نود أن نستعرض الملامح الخاصة لكل منهما قبل المزج الضرورى بينهما. ولنبدأ بالعلم طبعاً، حتى وإن ذكر مؤرخو العلم والتكنولوجيا أن الإنسان قد إنشغل بالأخيرة لحل مشاكله الحياتية، قبل أن يتوصل الى قواعد العلم ومنهجه، وحاجاته الى التجديد والاختزال والرمزية وما الى ذلك

فى مشهد العلم نرى ما يمكن وصفه «بالتقاء الأطراف» و «إمتزاج الحواجز والتخوم boundaries وسنحاول أن نوضح ذلك فى خمسة أشكال لهذا الإتقاء والإمتزاج:

- **التقاء الصغير والكبير:** مع زيادة القدرة التحليلية والامكانيات التجريبية لأجهزته، صار من الممكن التعامل المنظومى مع ما يسمى بالكون الصغير micro-cosm والكبير macro-cosm، وأن تشمل الدراسة ما دون الذرة وما فوق المجرة. فالإنسان يدرس الجسيمات تحت الذرية ويفسر الظواهر

II . ملامح فى مشهد الثورة العلمية والتكنولوجية

١ - ملامح فى مشهد العلم:

والمظاهر الكونية فى نسق واحد. يفهم الانفجار الكبير والإنشطار الذرى والاندماج النووى والحث الليزرى وتغير الاطوار فى اطار واحد للتعامل مع المادة فى أدق واضخم اشكال انتظامها.

ويسعى للتوصل الى نظرية موحدة للقوى (المعروفة حتى الان، وهى قوة الجاذبية والقوة الكهرومغناطيسية والقوى النووية القوية والضعيفة) التى تحكم هذا الانتظام ويجرؤ على تسميتها بنظرية كل شىء.

ان القدرة على التعامل باسهاب مع الصغير والكبير قد مكنتنا من تقسيم الزمن وقياس احداثه فى مستوى «الفمتو- ثانية» (الفمتو ثانية = 10^{-15} من الثانية) وابداع التكنولوجيا شديدة الاستدقاق «النانو- تكنولوجيا (النانو - 10^{-12} من الوحدة) المتمثلة فى أجهزة شديدة الصغر والدقة.

- **التقاء التحدد واللاتحدد:** مع ظهور نظرية الكم وتداعياتها اهتزت التخوم المتخيلة بين الطاقة والمادة وبين الطبيعة الجسيمية والموجية للوجود. وقدم مبدأ اللاتيين للتعامل مع ادق المكونات فى كون لا تهدأ حركته. ان هذا المبدأ، الذى اسينت قراءته مع البعض، يعلمنا التعامل الواعى مع الزمان والمكان، اللذان انفصلا عندما حدث الانفجار الكبير فى بذرة الكون الاولى.

لقد ادركنا صعوبة ان نحدد مكان الجسيم ونقيس سرعته فى نفس الوقت، نضج تعاملنا مع الإحتمالات، وتقدير نسبة الخطأ فى القياسات، كما تطور فهمنا للنسبية وقوانينها، وللحتمية وحدودها.

وعلى المستوى المنهجي، يمكن التعامل مع هذا الملمح على اساس النقد المستمر، الذى صار روح العلم، والشعلة التى تضئ له الطريق نحو التصحيح الذاتى المتصل. فالعلم ليس به «دوجما» أو مسلمات غير قابلة للنقد، أو محددة سلفا بشكل لا يقبل الاختبار. انه ليس كالايدولوجيا، بل هو تجربة ديناميكية ورحلة طويلة نحو الحقيقة، التى يستشعر المشتغلون بالعلم أنهم دوماً فى بداية الطريق الطويل والصعب إلى بلوغها.

- **التقاء النظام والفوضى (الشواش):** والفوضى أو الشواش هما الترجمتان المطروحتان لكلمة chaos، التى تستخدم لدراسة الآثار بعيدة المدى لتغير أولى، مهما كان بسيطاً، فى نظام من النظم المعقدة أو المركبة. لقد قطعنا شوطاً كبيراً فى دراسة «قواعد» الفوضى، التى تمكنا من فهم النظام. إن المثال

الشهير، المسمى بتأثير أو ظاهرة الفراشة، يدعونا الى التفكير فى امكانية الربط بين رفرقة فراشة بجناحيها فى الصين وعاصفة تحدث فى أمريكا، عن طريق تداعى آثار هذه الرفرفة وتضخمها المستمر فى نظام الطقس المعقد!!! ومع المزيد من استيعاب طبيعة النظم المركبة وتفاعلات مكوناتها، يتم التقدم المتسارع فى فهم النظم الطبيعية والاجتماعية. أى أن الأمر لن يقتصر على فيزياء الكون، ولكن ستعداه الى السياسة والاقتصاد والفكر (لقد خصص أحد المؤتمرات لدراسة التطرف باستخدام أدوات هذا المجال).

- **التقاء الحى وغير الحى:** فحتى الفاصل الشهير بين الاثنين قد تعرض لما أسميناه بالتقاء الأطراف وامتزاج الحواجز والتخوم. وأوضح الامثلة على ذلك مادة الوراثة (DNA)، التى تحدد برنامج الكائن الحى، ولا توجد حياة بدونها، عندما يتم فصلها خارج الخلية الحية أو تركيبها «معمليا» من وحداتها البسيطة، تكون مجرد مادة. ولا يعنيه من الطبيعة المادية ان لها خصائص مميزة، لان القانون الاكبر فى الكون يتمثل فى ملاءمة التركيب للوظيفة، فهذه هى سنة من اوضح سنن الله فى كونه. وعندما يتم ادماجها فى نظام حى تمارس وظيفتها. ولذلك أمكن نقلها من نظام حيوى الى نظام آخر فى تجارب الهندسة الوراثية. ولا يقتصر الامر على ذلك. اننا نحاول ان ندرس النظم الحية وتطورها معتمدين على ما نعرفه من قواعد النظم غير الحية، فكلاهما مادة أو إن شئت الدقة؛ مادة فى حالة حركة (نيل الدردج، ١٩٩٩). ولكننا نحاول ايضا ان ندرس النظم المعقدة ببعض ما نشاهده فى النظم الحية. وأشهر الامثلة على ذلك التعامل مع كوكب الارض ومناخه المحيط كنظام حى فى نظرية «جايا»، التى تفسر ميلها للتنظيم الذاتى، رغم ممارساتنا غير اللائقة فى كثير من الأحيان مع «أمناء الأرض». وكمثال آخر، يمكن ان نذكر الاتجاه الاحداثى نسبيا، الذى يسمى بالحياة الاصطناعية الذى يعتمد على تحديد الشكل المنطقى للحياة وصياغته فى نظام مادي غير حى (كريس لانجتون، ١٩٩٠). وكمثال اخير وخطير، يمكن ان نفكر فى ما اعلن عنه فى مطلع ١٩٩٩ عن الرغبة فى تخليق كائن دقيق كامل من جينات مركبة معمليا، تماثل جينيات ميكروب يوجد فى أجساد البشر!!!

- **التقاء الذاتى والموضوعى:** هل يوجد الكون فى عقولنا فقط، ام ان له وجود موضوعى خارجها؟ سؤال غريب طرحه الفلاسفة. لكن المؤكد ان صورة الكون يصعب أن تتخلص من «المبدأ الانثروبولوجى» او الانسانى، فالعلم بمعناه الحديث المحدود نشاط بشرى على أى حال، ولا يمكن مقارنته «بالعلم اللدنى»

لخالق هذا الكون، مهما اصابنا من غرور. يهمننا هنا أن دراسة المخ والنشاط العقلي تعدت الاقتصار على الفلسفة ودخلت المعمل بقوة. إن هذه الدراسة مرشحة لأن تجعلنا اقدر على الاجابة على العديد من الاسئلة القديمة الخاصة بفلسفة العلم كما تسمى الجديدة علم العلم : كيف نفهم الكون؟ وكيف نفهم انفسنا، باعتبار أن النسان هو الكائن «الارضى» الوحيد الذى كلفه الله بهذه المهمة؟ وما حدود الذاتية والموضوعية فى هذا الفهم؟ وما حدود التجربة ودور الخبرة والحدس؟ (ديفيد لوريمر، ١٩٩٨) هل يقوم العلماء بكشف النقاب عن قوانين الطبيعة، أم انهم يضعون نماذجا من عندهم لمحاولة وصفها؟ وهل يعد العقل آلة كالكمبيوتر؟ وهل يمكن إستلهاهم نظام العقل فى صناعة كمبيوترات أحدث؟ وهل يمكن الجمع بينهما فى صنع آلات «أفضل»؟ هذه كلها اسئلة تجاوزت حدود «الخيال العلمى»، ودخلت فى نطاق «العلم الذى يفوق الخيال»، وما اكثره فى هذه الأيام!!!

إن لهذه الملامح السابقة فى مشهد العلم تداعيات ثقافية لا تخطئها العين، ولا غرابة فى ذلك، لأن العلم هو ثقافة المستقبل، كما أكرر دائما. ومن أوضح الأمثلة على ذلك نظرتى التطور والنسبية، اللذان صار ذكرهما لازمة من لوازم رصد أى نشاط بشرى. وصارت معطيات العلم معينا لا ينضب للأدب والفن، ومنجزاته وتوظيفها قوة الدفع والتغيير الرئيسية، ايدىولوجيا واقتصاديا وسياسيا. وصار مستقبل البشرية متوقفا الى ابعد الحدود على سلامة هذا التوظيف. ومن هنا يجيء الاهتمام المتزايد بأخلاقيات ethics العلم والتكنولوجيا، المنوطة بهذا التوظيف (قرىمن دايسون، ١٩٩٧) ولعل المضمون المعرفى لهذه الاخلاقيات من ناحية، والقراءة المستوعبة للملامح السابقة فى مشهد العلم، قد ساعدا فى تخفيف حدة الصدام المفتعل بين العلم والدين كمصدر رئيسى للأخلاق و«الطاقة» الروحية للإنسان. لقد مرت العلاقة، ومازالت فى كثير من الأحيان، بمرحلة من عدم الفهم المتبادل. وكان اقصى المنى التوصل الى حلول توفيقية تعمل على الفصل بين القوات، بأن يترك كل منهما «فى حاله» دون تدخل أو تداخل. ومع اتساع آفاق العلم فى رويته للكون، وزيادة البعد الاخلاقى فى التعامل معه بحثا وتوظيفا، وزيادة ادراك المؤسسة الدينية لطبيعة وأهمية التعامل معه من منطلق جديد، ظهر الحديث عن التوافق وليس التوفيق، حتى ان سيناريوهات المستقبل تحمل احيانا رؤية للدعم المتبادل بينهما، من اجل غد افضل، روحيا وماديا، لكل البشر.

والآن، من المفيد قبل ان نستعرض الملامح الخاصة بمشهد التكنولوجيا مع نهاية القرن العشرين، ان نستعرض التكنولوجيا الحاكمة، التى صارت بين أيدينا

فى اللحظة الرباعية الحالية، والتى ستشكل تفاصيل حياتنا وتحدد مسئولياتنا الأخلاقية فى اللحظة القادمة.

ب - تكنولوجيايات القرن الحادى والعشرين:

شهدت السنوات الأخيرة تغيرا جذريا فى النظرة الى التكنولوجيا والتكنولوجيين، حتى أن هنالك من يعجب من الاهتمام المضطرد بفلسفة العلم، دون بذل عناية كافية للتعرف على فلسفة التكنولوجيا، أو العمل على صياغة فلسفة تجمعها معا خصوصا ونحن نعيش فى ظل ثقافة تكنولوجية (مارى تايلز، هانز اوبرديك، ١٩٩٥). إن المكون العرفى والابداعى فى التكنولوجيا لم يعد يتوارى فى الظل، عند مقارنته بما هو مشهور فى العلم والفن والشعر (سويراتا داس جويتا، ١٩٩٦). وهل يمكن أن نقلل من شأن المعرفة والإبداع فى الهندسة الاستكشافية والتصميم والتوجيه والتحكم؟ الم تقدم لنا التكنولوجيا ما نسميه بالذكاء الاصطناعى والحياة الاصطناعية؟ الواقع أننا نشهد رد اعتبار للتكنولوجيا، وإدراكا لدورها المحورى فى تشكيل حياتنا المادية والفكرية. ومن هنا تأتى أهمية دراسات الاستشراف For-casting التكنولوجى، وتأثيره فى حياة البشر.

وإذ نستعرض أهم التكنولوجيايات الحاكمة، المرشحة للزدهار فى القرن القادم، أو فى عقوده الاولى على الاقل، بسبب ما تأتى به الثورة العلمية والتكنولوجية من جديد دائما، يهمنى أن أقدم قراءة نقدية لإجتهادات المستقبلى المعروف جوزيف كوتس (١٩٩٧، ١٩٩٨)، الذى قدم هو ومجموعته دراسات موسعة فى هذا المجال.

وقبل التطرق الى هذه التكنولوجيايات، التى وضع «القرن العشرون» ابدينا على مفاتيحها، وبدأنا بالفعل نتأثر بشدة بمنجزات بعضها، يستعرض كوتس ستة أخطاء مترابطة علينا ان نتفادها عند التعامل معها:

- الخطأ الأول والأكبر يأتى من عدم إدراك الامكانية الحقيقية التى يمكن أن تقدمها التكنولوجيايات الجديدة لتحسين ظروف الحياة البشرية وحالة الدول المختلفة فى هذا الكوكب.

- الخطأ الثانى هو المبالغة فى تنظيم أو عدم تنظيم، أو فى رسملة Capitali-sation أو عدم رسملة التطورات الناجمة عن توظيفها.

- والخطأ الثالث، الاكثر شيوعا، هو التفاؤل الزائد حيال امكانياتها، والزمن الكافى لتطبيقها.

- والخطأ الرابع، الذى يكمل السابق، هو اغفال آثارها الجانبية، التى كثيرا ما تفوق فى اهميتها المشاكل التى تقدم التكنولوجيات كحل لها.

- اما الخطأ الخامس فيتعلق بخطورة اتخاذ القرارات اعتمادا على الحاضر ودون رؤية واعية للاحتياجات المستقبلية.

- وبالنسبة للخطأ السادس والآخر، فيتمثل فى اهمال حقيقة تعقد العالم اليوم. فرغم عدم انكارنا لرياح الكوكبة Globalisation، الا اننا نرصد ثلاثة عوالم مختلفة فى امكاناتها ومستقبلها التكنولوجى القريب على الاقل: عالم اول تقدم بصورة تسمح له باستيعاب وتطبيق كل جديد، وعالم ثان يمارس التقدم المتوازن على الطريق، وعالم ثالث مازالت مؤشرات المستقبل الايجابى بالنسبة له غير واضحة، وهو امر لا يحتاج الى ذكر النماذج والامثلة!!! ان هذا الواقع سينعكس على الخيارات التكنولوجية لكل عالم، وعلى المناخ الذى يتم فيه التعامل بين عوالم ثلاثة يجمعها مستقبل كوكبى واحد.. وهذا ما لم يتطرق اليه كوتس بوضوح، ويكفيها هنا الاشارة اليه، حتى لا نتهم بتبنى نظرية المؤامرة!!!

نعود الان الى التكنولوجيات المرشحة لتشكيل المرحلة القادمة من حياة البشر، والتى يتفق فيها كوتس مع جل، ان لم يكن كل، من يقومون بالاستشراف التكنولوجى. هذه التكنولوجيات تتبع ستة مجالات، وهى تحديدا

تكنولوجيا الوراثة Genetics Technology

تكنولوجيا الطاقة Energy Technology

تكنولوجيا المواد Materials Technology

تكنولوجيا المخ Brain Technology

تكنولوجيا المعلومات Information Technology

وهناك مجال سادس، لا يعد فى حد ذاته تكنولوجيا معينة، ولكن سيحكم اداءها كلها، وهو البيئية Environmentalism، التى اشتدت حركتها تأثيرا فى العقود الأخيرة.

وأود أن أوضح أن الترتيب السابق قد أورده كوتس، حتى أنفى شبهة التحيز لاشتغالي بالوراثة، التى وضعها على قائمة تكنولوجيات المستقبل!!! بعد هذا التوضيح، يمكن أن نقدم باختصار تعريفا بهذه التكنولوجيات وأفاق منجزاتها، دون

أن ننسى بالطبع اعتماد هذه التكنولوجيات على العلوم الأساسية (الفيزياء والكيمياء والبيولوجيا والرياضيات) وفروعها العديدة، المشكلة لشجرة العلوم الطبيعية. كما لا ننسى أيضا ارتباط توظيفها بمعطيات العلوم الاجتماعية والانسانية (السياسية والاقتصاد والاجتماع والاخلاق.. الخ). اننى اذكر ذلك، لأن دراسة كوتس المنشورة ضمن تقرير منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية عن تكنولوجيا القرن الحادى والعشرين OECD، ١٩٩٨ اعطت اهتماما كافيا بشكل عام لما يتصل بالعلوم الاجتماعية والانسانية، دون أن توصل بنفس القدر دور التقدم فى مختلف مجالات العلوم الأساسية فى إحداث الطفرات والاختراقات التكنولوجية فى الحاضر والمستقبل.

تكنولوجيا الوراثة:

منذ أن عرفنا الأساس المادى للوراثة، وأن برنامج الكائنات الحية مشفر فى جزيئات الدنا DNA فى أنوية الخلايا، واستطعنا عزل وحداتها (الجينات) او تركيبها معمليا من وحداتها الكيماوية، صار من الممكن نقلها من كائن إلى آخر، مهما باعدت شجرة التطور بينهما (الهندسة الوراثية). وبالتالي صار من الممكن التفكير فى علاج الأمراض الوراثية، التى عرف سببها الجزئى، وبدأت إرهابات العلاج الجينى Gene Therapy، سواء بوضع جين سليم يعوض قصور الجين المعيب، أو بإبطال نشاط جين مسبب للمرض، فى ما يعرف بالهندسة العكسية. ولا تقتصر التطلعات على تصحيح الأخطاء، بل تتجاوزها الى طرح إمكانية التحسين وزيادة إمكانيات الكائنات enhancement، وهو أمر مقبول فى الإنتاج النباتى والحيوانى والميكروبى مثلا، لكنه أقل قبولا من الناحية الأخلاقية بالنسبة للإنسان. فذلك يثير العديد من الاسئلة عن «صاحب القرار» فى تحديد من هو الأفضل، وفى حق الجنين فى قبول هذا التغيير الموجه دون ان يستطيع الرفض... الخ!!! ان كتاب الانسان الوراثى سيتم التعرف على كل حرف وكلمة فيع مع مطلع القرن القادم، وذلك باتمام مشروع الجينوم (الطاقم الوراثى) البشرى الذى يحدد البرنامج الكامل للإنسان وسيكون اتخاذ القرارات حيال امكانيات توظيف المعلومات المتوفرة منه امرا لازما.

ومع نجاح تقنية الكلونة cloning (أو الاستنساخ، كما شاعت الترجمة) ظهرت امكانية الهندسة النسيجية، لإنتاج قطع غيار للأنسجة والأعضاء التالفة فى الانسان، والاستخدام الواسع فى إنتاج قطعان حيوانية متميزة، بواسطة الكلونة منفردة، أو مع توظيف الهندسة الوراثية لاضافة جينات مرغوبة الى افراد هذه القطعان. وتستخدم تكنولوجيا الوراثة والكلونة بالذات ايضا فى الحفاظ على

الكائنات المهددة بالانقراض (ويتمد الى الخيال الى اعادة بعض الكائنات المنقرضة، التي حفظت حقوباتها بشكل جيد الى الحياة) . ومرة اخرى تثار القضية الاخلاقية بالنسبة لكلونة الانسان، وهو امر يبدو انه سيحدث حتما، وعلينا الاستعداد الجاد لتنظيمه، دون ان يفقد البعض «الأمل» في محاولة منعه، لو ثبت ان سلبياته تفوق ما له من ايجابيات، أو على الاقل تحديد نطاقه بشكل حاسم. كما أن موضوع استخدام الأجنة المكونة، كمصدر لقطع الغيار البشرية، أمر آخر يستحق الاتفاق المجتمعي بشأنه، إجازة أو منعا أو تنظيمياً.

والحقيقة ان تكنولوجيا الوراثة، المرشحة لأن تكون التكنولوجيا المميزة للقرن القادم، حتى من قبل ان يتحفظون عليها بشدة (جيرمي ريفكين، ١٩٩٨)، لها الكثير من الأوجه المضيئة، ليس فقط بالنسبة للطب في مجالات التشخيص والعلاج الجيني وإنتاج الأدوية واللقاحات والفاكسينات ودراسة الشيخوخة، ولكن في مجال آخر يهم الانسان بشكل مباشر ايضا، وفي الزراعة بالذات. هذه التكنولوجيا مرشحة لان تزيد من عدد الانواع والاصناف النباتية القابلة للاستخدام البشرى في الغذاء edible plants، بالتخلص من صفاتها غير المقبولة، بالاضافة الى الثورة التي تحدثها في المحاصيل الأساسية المستخدمة فعلا، كميا وكيفيا. هنالك حوالي ٣٥٠٠ نوع من النباتات القابلة للاستخدام الغذائي، يستخدم منها فعلا ٣٠٠، يصل ٦٠ منهم فقط الى النطاق التجارى الواسع، الى أى مدى يمكن أن تزيد قائمة النباتات المستخدمة على موائد البشر، بالتوظيف الهادف لتكنولوجيا الوراثة؟ وهل تستطيع أن تحل المشاكل الاقليمية لتغذية ملايين البشر؟ أسئلة سوف يجيب عليها المستقبل.

وحتى هذا الوجه المضيء له محاذيره ويتعرض ايضا لمناقشة آثاره بعيدة المدى، بالنسبة للتنوع الحيوى وإمكانية إنتشار جينات غير مرغوبة، بشكل غير موجه، من من الكائنات عبر الجينية transgenic الى غيرها كالحشائش او الميكروبات الممرضة مثلا، فيما يعرف بالنقل الأفقى للجينات. وهذا موضوع مجال واسع لتنظيم تكنولوجيا الوراثة، يعرف بالأمان الحيوى Biosafety ان التقييم الموضوعى لنتائج دراسات الامان الحيوى، مصحوبا بالانشطة الجارية فى مجال دراسة أخلاقيات البيولوجيا Bioethics، سيسمحان بتعظيم الاستفادة من إيجابيات تكنولوجيا الوراثة وتقليل السلبيات المحتملة، خصوصا اذا ما أدى الوعى المجتمعي الى أن يؤثر ذلك فى قرارات وآليات العمل فى مجال البيزنس البيولوجى Biobusiness، الذى تستثمر فيه الشركات العملاقة أموالها (١٢٠ بليون دولار

قابلة للزيادة، في أمريكا وحدها)، وتستعجل جنى الأرباح. إن المشتغلين بتنظيم تكنولوجيا الوراثة، أو التكنولوجيا الحيوية بشكل عام، يتحدثون عن تقييم المنتج Product أو العملية الانتاجية Process أو البرنامج (3 p`s)، ولكن عليهم الإلتفات بشدة الى قوة ونفاذية "P" رابعة، الربح Profit!!!

تكنولوجيا الطاقة :

لقد اعتمد «التقدم» على موجات متتالية من مصادر الطاقة: أولا المياه، ثم الفحم، وبعد ذلك البترول، والآن الغاز الطبيعي، والى حد ملحوظ الطاقة النووية. إن المستقبل سيشهد اعتمادا اقل على المصادر المفردة، واعتمادا اكبر على المصادر المتعددة. ومن اكبر العوامل تأثيرا على مستقبل الطاقة، ما يتعلق بعلاقة الانشطة التكنولوجية بظاهرة الصوبة وما يصاحبها من إحتباس حرارى. اذا ثبتت هذه العلاقة بشكل موضوعى كامل، وهو أمر كبير الاحتمال، سيستدعى ذلك تحسينا شاملا فى نظم الانتاج والتخزين، ودفعا للجهود المؤدية الى توفير الكهرباء اللازمة (باستخدام المواد ذات التوصيل الفائق مثلا)، وكذلك بناء محركات وآلات اكثر كفاءة فى استخدام البترول والغاز الطبيعي. ولن يكون ذلك كله كافيا.

فى المستقبل، ستتمحور البنية الاساسية للطاقة على المستوى الكوكبى، حول مصدرين رئيسيين: الطاقة النووية، التى يتوفر فى استخدامها العنصر الاقتصادى والامان والتصميم الموحد (طبقا للنموذج الفرنسى الى حد كبير). والمصدر الثانى هو الطاقة الشمسية، التى سيكون عطاؤها الرئيسى متمثلا فى الخلايا الكهروضوئية، لتوليد الكهرباء وتحلية المياه. ومما يذكر أن طاقة الرياح قد شهدت تطورا تكنولوجيا ملحوظا فى السنوات الاخيرة. أى أن الاتجاه بات واضحا نحو مصادر الطاقة المتجددة، وسيزداد وضوحا مع حسم موضوع ظاهرة الصوبة، فى اتجاه ادانة الوقود الحفرى على الأغلب الذى تجرى الجهود لتحسين طرق الاستفادة منه، بانتاج سيارات تحتاج الى جالون واحد من البترول لكل مائة ميل مثلا.. الخ. وان كان ذلك لن يغنى عن دفع الاستثمارات طويلة المدى فى مجال المصادر غير التقليدية كالتقنية الحرارية للأرض، وكذلك دعم البحث والتطوير بالنسبة للخلايا الكهروضوئية واستخدامات الطاقة الشمسية.

لقد حققت أوروبا تقدما واضحا بالنسبة للحفاظ على الطاقة وترشيدها، تليها الولايات المتحدة وكندا، وإن كانت الفجوة واضحة بينهما وبين أوروبا. لكن المشكلة، كما يراها كوتس، تبدو واضحة بالنسبة لدول كالصين والهند وأندونيسيا، التى يعتمد تطورها الاقتصادى الملحوظ على الوقود الحفرى، بينما تتجه السياسة

الكوكبية للطاقة بشكل عام ناحية البدائل غير الكربونية. ولقد لفت نظري مقال هام، ظهر في عدد «يناير/ فبراير ١٩٩٩» من مجلة فورين افيرز (السياسة الخارجية)، التي تعد من أهم الدوريات السياسية المؤثرة. فتحت عنوان «البتترول الجديد»، طالب ريتشارد لوجار وجيمس دولسي بدعم البحث والتطوير في مجال تكنولوجيا الطاقة المستخرجة من الكتلة الحيوية Biomass للنباتات، وتشجيع ذلك بشتى الحوافز عن طريق تخفيض الضرائب وغير ذلك. ان كحول الايثانول الناتج عن ذلك يعد «صديقا» للبيئة، ومتوافقا مع نظم النقل في أمريكا، ولا يقل كفاءة عن الوقود الحالي.

ومما لا يذكر عادة في التقارير، التي تعتمد على ما يمكن استشراف حدوثه من تكنولوجيات موضوع طاقة الاندماج النووي بالتحديد. لقد ذكر تقرير كوتس الالهية المستقبلية للطاقة النووية عموما. لكن طاقة الاندماج، التي اذا امكن انتاجها تحت ظروف عملية فنيا واقتصاديا، ستوفر مصدرا غير محدود للطاقة النظيفة. وفي ظني انها ستظل هدفا ستسعى الدول المتقدمة الى تحقيقه، بل هي تسعى الى ذلك فعلا على الارجح. وعموما، فكل هذه البدائل المذكورة لاشكال الطاقة غير المتجددة، تدق ناقوس الخطر بالنسبة للدول التي تعتمد اقتصادياتها على البترول، مثل كثير من الدول العربية. قد لا يكون الخطر كبيرا في المدى القصير، وان كان خطر تدنى الاسعار لا يخفى على احد. لكن الرؤية المستقبلية بعيدة المدى تؤكد جدية المشكلة.

تكنولوجيا المواد:

يرى كوتس ان تكنولوجيا المواد تمثل الثورة الخفية القادمة، ومن الصعب موافقته على ذلك. فمع اعترافنا بأن امكاناتها لم تتكشف امام المجتمع بنفس الدرجة الملحوظة بالنسبة لتكنولوجيا المعلوماتية او الطاقة، والى حد ما الوراثة، إلا أن «الجزء الظاهر من جبل الثلج» يكفي لتأكيد ان هذه الثورة لم تعد عصية على استشراف اهميتها، فهي التكنولوجيا التي ستقوم على المدى الطويل باعادة بناء العالم!!!

من الناحية التاريخية، كنا محددين دائما بامكانيات المواد التي استخدمناها في البناء قديما كالحجر الجيري والجرانيت، او بالنسبة لمواصفات الأخشاب التي استخدمناها عبر القرون، أو التنوعات المتميزة من الاسمنت، او مخاليط الصلب والنحاس الاصفر والالومنيوم. إن المعرفة الواقعية المتوفرة حاليا، تسمح بأن تأخذ في الاعتبار تصميم مواد جديدة تماما، لها ما نريد من خصائص. فمثلا يمكن

تصور تصميم زجاج مرن عند درجات حرارة معينة، يبدى استجابة ضوئية، وفي نفس الوقت موصل للكهرباء. وبعيدا عن جمع الخصائص التي تبدو متناقضة، كالجفاف والبلى مثلا، فلدينا القدرة على الاقل ان نبدأ استكشاف امكانيات تصميم مواد جديدة، ذات خصائص تستحث الابداع الهندسى بشكل كبير، ووفقا للمتطلبات المجتمعية: تحمل اكبر ولفترة اطول، مع التشجيع على اعادة الاستخدام التدوير والاصلاح واعادة التصنيع.

ان ضغوط انصار البيئة ومحدودية الموارد والامكانيات الخاصة بالتصميم والهندسة، كل ذلك سيعمل على توفير المتطلبات السابقة على نطاق واسع.

ويشهد مجال المواد اتجاها متزايدا نحو الصغر (المنمنة miniaturisation) والوحدات القياسية modules. ان الوحدات القياسية الصغيرة تحتاج الى قدر اقل من المادة والطاقة، وتكون اكثر قابلية للابديل والاصلاح المركزى. اما «المنمنة» فقد وصلت الى الحد الذى توجد حتى - على نطاق تجارى - اجهزة دقيقة الحجم (micro) نقل عن القطع العرضى لشعرة الانسان. مثل هذه الاجهزة تعمل فى مجالات الاستشعار والتشغيل الآلى، بل واجهزة قياس وتحكم فى الكائنات الحية (بما فى ذلك الانسان) ولعلنا نذكر الروبوت الدقيق، الذى صنع على شكل نملة منذ سنوات، وكذلك يمكن توجيه مثل هذه الاجهزة الصغيرة للاستكشاف واجراء الجراحات الدقيقة. ولا يتوقف اتجاه المنمنة عند مستوى «الميكرو» بل يتخطاه الى مستوى «النانو»، الاصغر الف مرة، الذى يستدعى التعامل مع الذرات والجزئيات المنفردة. ان المستقبل يحمل الكثير بالنسبة «للنانو تكنولوجيا» فى استخداماتها فى مجال الاجهزة شديدة الاستدقاق والمواد الجديدة، التى يمكن تشكيلها ذرة بذرة atom by atom باستخدام ميكروسكوب خاص.

اننا نشهد فى الطبيعة انتظام الذرات والجزئيات فى البروتوبلازم، الذى ينتظم بدوره فى كائنات معقدة. ونشهد فى هذه الكائنات تكون مواد ذات خصائص فريدة، يحلم الانسان بتشكيل مشابهاة لها: توفر الدفاء والتخلص من البلى والمساعدة على الطيران كما فى ريش الطيور، او تقدر على استجابات حسية دقيقة، او تتمتع بقدرة على اللصق لا تجاريها صناعتنا الحالية، بكل الاعلانات التجارية عن مميزاتنا. ان دراسة خصائص المواد الطبيعية فى الكائنات الحية، ومحاولة محاكاتها، ستكون من المجالات الواعدة بالنسبة لثورة المواد، التى تشمل بالاضافة الى المواد البيولوجية والبيوطبية، المواد المخزنة للمعلومات والمستجيبة

للضوء (فوتونية) والخاصة بالطاقة النظيفة، والمواد الذكية smart والنفيذة por-ous والصلبة والبلمرات الجديدة.. الخ (فيليب بول، ١٩٩٧).

تكنولوجيا المخ:

منذ فجر الفلسفة، انشغل رجالها بدراسة «العقل». ومع بداية العلم التجريبي في مرحلته الحديثة، قرر العلماء فهم «العقل» عن طريق دراسة «المخ» انا لا أقل طبعاً من أهمية الاشارات القديمة حول المخ ووظيفته، لكننى اکتفى بحقيقة واحدة يذكرها كوتس، الذى يذكر ان التسعينات كانت «عقد المخ» فى الولايات المتحدة الامريكية. يقول كوتس ان المعلومات الخاصة بتركيب ووظائف وانتظام وطريقة عمل المخ، التى تم الحصول عليها خلال التسعينات، تفوق ما عرفناه خلال المائة عام السابقة، ومع ذلك، فالطريق طويل، لاننا فى بداية تعلم خرطنة المخ Brain Mapping. وقد بات واضحاً ان الكثير من الوظائف المخية او العقلية ترتبط بموضع متخصص site-specific، ولها اساس كيميائى. ومع استكشاف فى طبيعة هذه العمليات، تجرى محاولة التعرف على كيميائها واذا كان هنالك قصور، ما هى أسبابه؟ هل مصدر القصور داخلى ام خارجى، يتم التعرض له عن طريق الغذاء ام خلال الجلد او التنفس؟ وكيف تتدخل فى مثل هذه الحالات لنواجه الظروف السيئة، ونستزيد من الملائمة؟ هذه هى الاسئلة الرئيسية، التى ستوظف اجاباتها فى «تكنولوجيا المخ»..

ومع دمج معلوماتنا عن المخ مع تلك المتحصل عليها عن سائر الجسد، لن يقتصر الامر على «الطب التصحيحي»، بل سيتعداه الى اعتبار ان الجسد والعقل سوياً سميتان حقلاً موحداً «للتجميل الجذرى»، وزيادة الإمكانيات. لن يكون هنالك جانب من جوانب الوجود البشرى، سواء اكان مادياً او عقلياً او اجتماعياً او نفسياً او فيولوجياً (وظائفياً)، بعيداً عن التدخل والتغيير باستخدام التكنولوجيا.

إن تكنولوجيا المخ ستساعد على علاج جذرى للكثير من الامراض التى نتعرف على أساسها المادى او الكيماوى، دون الاكتفاء بالتعامل معها كقصور اخلاقى أو «قلة ادب»، كما نقول. ومعرفة الاسباب ستحدد التدخل، الذى يمكن ان يكون بالعقاقير، او ان يكون وراثياً او سمعياً او مرئياً او بوسائل لم تستحدث بعد. واذا ما أخذنا دواء كالبروزاك كمثال شائع، سنرى ان ما يقال عنه يشابه ما كتبه الدوس هكسلى متخيلاً الدواء الذى يشعر المرء بالصحة والراحة. وكما ذكرنا بالنسبة لتكنولوجيا الوراثة، لن يقتصر الامر على العلاج حيث ستصبح الشيزوفرينيا مثلاً تاريخاً يروى فى العالم الأول، بل سيتعداه الى محاولة التحسين

وزيادة الامكانيات المعرفية والخاصة بالتذكر والعاطفة والتحكم فى الانفعالات.... الخ. ولا أظن ان الأهمية المجتمعية والجوانب الأخلاقية تخفى على أحد. لقد اعترضت على وصف تكنولوجيا المواد بالثورة الخفية القادمة، لكننى ارشح تكنولوجيا المخ البازغة لتمثل هذه الثورة، التى يصعب تخيل ادواتها وآثارها فى العصر الحالى.

تكنولوجيا المعلومات :

لقد أحدثت هذه التكنولوجيا تغيرات كبيرة فى المجتمع العالمى، ومع ذلك فلقد بدأنا بالكاد فى الاحساس بالتحويلات التى ستحدثها التطورات الحديثة لها. ان الألياف الضوئية ستجعل تكلفة الاتصالات تقترب من الصفر، سواء أكان ذلك فى مجال العمل او الاتصال الشخصى.

إن هذا الخفض سيستمر فى احداث تغيير جذرى فى طرق ادائنا لعملنا ومكان وكيفية هذا الاداء. وستزايد التجارة الالكترونية، وتنشأ نظم جديدة للعلاقات بين البشر، بما تثيره من قضايا مجتمعية، وبالذات فى مجالى المساواة والخصوصية. وستتوقف الحلول على الطريقة التى يتم بها «هندسة» الشبكات وتصميمها وتنظيم عملها.

والتطور الحادث فى الذكاء الاصطناعى يتضمن زيادة سعة وسرعة الكمبيوتر مع صغر حجمه. والمغزى الحقيقى لذلك ان هذا التقدم الكبير يزيد من صعوبة الادارة واتخاذ القرار حيال المشكلات. فالدورة التقليدية تتضمن جمع البيانات، والتوصل الى نتيجة ما، يقترح على اساسها تغييرا معيناً، ثم يتم تنفيذ هذا التغيير، وتبدأ دورة جديدة، طبقاً للظروف الجديدة. وهذا يستغرق عاماً كاملاً. ان الكمبيوترات الحالية تستدعى الادارة الفورية «فى الزمن الحقيقى» كما توصف. وهذا يستدعى تبنى مدخلا مرناً للتجريب المستمر، ذى النهاية المفتوحة لادارة النظم المعقدة، التى تنهمر فيها المعلومات والمشكلات اللازم التعامل معها بسرعة غير مسبوقه.

ويبدو هنا المجال واسعا للقاء خصب بين تكنولوجيا المعلومات وتكنولوجيا المواد. فكل شىء سيبدو اكثر رشاقة وذكاء، وله وسائل الاستشعار والمعالجات الدقيقة واجهزة التشغيل الآلى، وستتمكن هذه «الاشياء» من القيام بثلاثة وظائف معلوماتية: تقييم ادائها الذاتى، وتصحيح العيوب اذا ظهرت، أو طلب المساعدة، اذا كانت العيوب اكبر من قدرتها على الاصلاح. وبالربط الشبكي بين هذه الاجهزة الذكية، يمكن ممارسة الادارة عن بعد، يبلغ عدة اميال او حتى آلاف الأميال. هذا «الذكاء التكنولوجى» سيمتد الى كل ما نصنعه من ابنية وأدوات وغير ذلك.

كما ان اللقاء بين المعلوماتية وتكنولوجيا الوراثة والبيولوجيا Bioinformation لن يكون اقل خصوصية بدءا من الرقائق الحيوية من مادة الوراثة ذات السعة المعلوماتية الهائلة، وانتهاء بالكمبيوترات التي «تلد» غيرها واتصالات خلايا المخ بالكمبيوتر والشبكات في نظام اصطناعي... الخ.

ان الامكانيات المتزايدة للاتصالات والكمبيوتر، وما تتضمنه من «الصورية» imaging، ستسمح بشيوع استخدام تكنولوجيا «الواقع التخيلي او الافتراضي» - virtual reality، في التعليم والتدريب والمحاكاة. فجهاز يوضع على الرأس، وقفاز في اليدين، وبرنامج مناسب للكمبيوتر سنحقق حلم الجمع بين المعرفة والخبرة، حتى ولو كانت تخيلية (كلنا نذكر العسكري الامريكى، الذى قال انه تدرّب على سيناريوهات حرب الخليج عدة مرات، عن طريق هذه التقنية). ان الجمع بين الذكاء الاصطناعي والواقع الافتراضي سيؤدى الى اجادة تامة (100%) لما تتعلمه الأجيال الجديدة، وهذا سيؤثر على حياتها العامة والمهنية.

وسيحّدث نفس الشيء بالنسبة لعالم التصميم والاختيار، لن نصنع شيئا ماديا، الا بعد تصميمه واختباره وتعديله وتطويره، وقياس (بل والاحساس) بكفاءته، عن طريق ادوات ووسائل الذكاء الاصطناعي والواقع الافتراضي. وستحدّد استخدامات تكنولوجيا المعلومات ايضا لتزيد من كفاءة ممارسة الديمقراطية، والتعرف على آراء الناس فى المشاكل التى تخصهم «لحظيا»، وستحل مشاكل المرور والطرق السريعة.. الخ.

ان تطبيقات تكنولوجيا المعلومات ستحسن من جمع البيانات وتحليلها، بشكّن يساعد على التخطيط والتقييم والتوقع والإدارة. وسيان أكان ذلك فى مجال الهندسة الكبيرة macraengineering ومشروعاتها، كنقل جبل من الثلج من مكانه لرى مكان آخر، أو توقع ومحاولة منع زلزال من الزلازل... الخ.

إن التطبيق الشامل لتكنولوجيا المعلومات يتضمن أربعة مراحل: جمع البيانات - تحويلها الى معلومات، بشكل يساعد على الاستفادة منها- يأتى بعد ذلك دمج هذه المعلومات فى النسيج المعرفى العام- وأخيرا، «الحكمة» فى التعامل معها، وهى الخطوة التى تبدو قاصرة فى كثير من الأمور!!!

إن الاطار العام الذى عرضناه، يجعل البعض يتساءل عند قراءته: أين تكنولوجيايات الفضاء أو الأرض أو الأعماق؟ إنها تتشكل من التوليفات المختلفة لهذه التكنولوجيايات. فمجال الفضاء مثلا يعتمد على تكنولوجيا الطاقة والمواد

والمعلومات، ولعل فهمنا للمخ أن يمكننا من التعامل معه بحكمة، تختلف عن
حكمة «حرب النجوم»!!! وكذلك بالنسبة للأرض وأعماق البحار.

وكما ذكرنا، فالبعد البيئي ستم المحافظة عليه بشكل متزايد، عند هندسة
وتطبيق التكنولوجيات السابقة. ان التنافسية بين البشر ستتوقف على العناية بهذا
البعد في شتى مناحى وظروف الحياة. اننا، رغم قدراتنا المتزايدة، كثيرا ما نغيب
عنا الرؤية الموضوعية بعيدة المدى. والاهتمام بالبيئة يعد واحدا من جوانب ترشيد
التقدم التكنولوجي، وتعظيم الاستفادة منه. ان التكنولوجيا التي نتحكم بواسطتها في
الطبيعة، يلزمها أن نتحكم فيها نفسها، كما يقول ويدسكورسكى (١٩٩٣)، الذي
يستطرد متسائلا عن فائدة المعرفة والقوة التي يمد نابها العلم وتطبيقاته
التكنولوجية: هل تفيد المجتمع أو القيم الجمالية أو الروحية، أم تفيد نفسها؟ هل
تخدمنا التكنولوجيا، أم تجعلنا خداما لها؟ سنتلمس ذلك، ونحن نستعرض أهم
الملامح في مشهدها.

ج- ملامح في مشهد التكنولوجيا:

ذكرنا من قبل ما يحمله الفصل التاسع بين العلم والتكنولوجيا، في عالم اليوم،
من مخاطرة. ولعل استرجاعنا للملامح المتعلقة بمشهد العلم، يظهر كيف تطرقت
سطورها الى المغزى التكنولوجي. وفي استعراضنا للملامح الخاصة بمشهد
التكنولوجيا سنواجه موقفا مشابها. ولا غرابة في ذلك، فالمرحلة الحالية من مراحل
التطور التاريخي للعلم هي مرحلة العلم التقني (Techno-Science) (ماري تايلز
وهانز اوبرديك، ١٩٩٥). إننا في هذه المرحلة لا نتعامل مع مجموعة من العلوم
التطبيقية، بالمفهوم القديم لتقسيم العلوم الى اساسية وتطبيقية. ولكننا نتعامل في
مجال التطبيق التكنولوجي للعلم، الذي يتفاعل مع منجزات كل العلوم الأساسية،
ويجعل الفارق الزمني بين المعرفة المتولدة عنها والتطبيق قصيرا الى درجة تقرب
من الإلغاء.

إن تمويل العلوم الأساسية وبحوثها صار متأثرا بشدة بأهداف وآفاق التطبيق
التكنولوجي للنتائج، وهذا متغير هام في سوسيولوجيا واقتصاديات البحث العلمي
والتكنولوجيا. منذ أكثر من عشر سنوات (١٩٨٦) تجاوزت منظمة الأغذية
والزراعة التقسيم النمطي للبحوث إلى اساسية وتطبيقية وقدمت تقسيما ربايعا
يستحق الاهتمام. فمن البحوث الاساسية ما يستهدف التوصل الى معلومات هامة
بالنسبة لدولة او شركة او مجتمع، لحل مشكلة ملحة تتعلق بالأمن أو الصحة أو
الإنتاج... الخ. هذه النوعية من البحوث الاساسية اسمتها المنظمة «بالبحوث

الاستراتيجية، و «البحوث التطبيقية» أحيانا ما تقوم على تكنولوجيا مستوردة، يلزم استيعابها وتوطينها وتكيفها مع ظروف المجتمع المنقولة اليه. وهذا ما تسميه المنظمة «ببحوث المواءمة».

بعد توضيح العلاقة العضوية المعقدة بين العلم والتكنولوجيا اليوم، وتأكيد علاقات الأخذ والعطاء بينهما، حيث تؤدي المعارف العلمية الى اتساع آفاق التطبيقات التكنولوجية، ويؤدي الابداع التكنولوجي الى زيادة القوة التحليلية re-solving power لأدوات البحث العلمى، بما يمكننا من ارتياد آفاق وعوالم جديدة للمعرفة، أقول بعد هذا كله دعونا نحاول استخلاص الملامح الخاصة بمشهد التكنولوجيا بشكل أكثر تجريدا.

ولا يجب أن نندهش اذا ما خالط حديثنا كلام «فى العلم» أو «عن العلم»، لأننا ونحن نناقش ملامح العلم او ملامح التكنولوجيا، إنما نناقش التجليات المختلفة «للعلم التقنى» الذى أشرنا اليه. وإن كنا «منهجيا» فضلنا المعالجة «المنفصلة» المتصلة» لملامح الاثنين. والآن، لنستعرض ملامح مشهد التكنولوجيا كما نراها، والتي سبق استعراضها بشكل اولى ومختصر فى موضع آخر (أحمد شوقى، ١٩٩٧).

- الاختراق وكسر الحواجز :

لقد ذكرنا فى موضع سابق نموذجى الانفجار السكانى والمعرفى، ونذكر هنا انفجارا لا يقل أهمية، هو الانفجار الحركى بدأ الانسان يدب الأرض بسرعة لا تتجاوز اربعة اميال فى الساعة، وعبر التزايد المتسارع باستخدام الدواب والمركبات ذات العجلات والمركبات البخارية والسيارات والطائرات، واخيرا الصواريخ فى رحلات الفضاء، ليصل الى عشرات ومئات الأميال فى الساعة، ثم الآلاف وعشرات الآلاف، بحيث يمكن قياس السرعة فى الثانية، وليس فى الساعة. لقد كسر بذلك «حاجز الزمان والمكان». وكانت المادة كتلة مغلقة، حتى تعاملنا مع جزئياتها وذراتها فى النانوتكنولوجيا والتكنولوجيا الذرية والجزئية، وبذلك كسر «حاجز المادة».

ثم جاء الدور على كسر «حاجز المعلومات»، بالقدرة غير المسبوقة على تخزين ومعالجة واسترجاع المعلومات، حتى أن كل المعلومات البشرية يمكن تخزينها فى حيز صغير لم يكن لنتصور امكانيته منذ عقود او سنوات قليلة. إن شبكات المعلومات، وعلى رأسها شبكة الشبكات (الانترنت) خير دليل على ذلك.

وحتى «حاجز الواقع»، قد تم كسره فى تكنولوجيا الواقع الافتراضى».

وأخيراً، تم كسر حاجز التكاثُر، الذي كان الوسيلة الوحيدة لتبادل الجينات بين الكائنات الحية، بالهندسة الوراثية، التي مكنتنا من نقل الجينات من كائن إلى آخر، مهما كان موقعهما مختلفاً في شجرة تطور الكائنات الحية. جينات الإنسان تنتقل وتعمل في البكتريا والفيروسات والنباتات والحيوانات، وجينات الميكروبات تنتقل إلى النباتات.. الخ. اننا على مشارف التطور الموجه، الذي يجب ان نستعد له بالتنظيم الواعي.

ومع فهمنا للمخ واسبابه، لن يكون كسر حاجز العقل، بعيداً او مستحيلاً. إن هذه الاختراقات التكنولوجية، التي نمتلكها في نهاية القرن العشرين بدرجات مختلفة، ستجعلنا في حاجة ماسة إلى عقل جديد للعالم الجديد، فقد كنا أكثر تكيفاً للعالم الذي خلقنا عن تكيفنا للعالم الذي خلقناه (ايرليش وأورنشتين، ١٩٩٠).

كثيراً ما نسمع عن العلوم البيئية وأهميتها الكبيرة. انى اتصور- وهذا امر قد يكون خلافياً- ان الفكر التكنولوجى قد ساهم فى ترسيخ هذه البيئية، وخدم بذلك تطور العلم وتطوره الخاص. ان البيئية تستلزم استخدام ادوات ومناهج الفروع المختلفة، وكثيراً ما يستدعى اللجوء اليها الرغبة فى حل المشاكل الميدانية. ولقد لعبت التكنولوجيا فى ذلك دوراً محورياً. وامتد مفهوم البيئية الى العلوم الاجتماعية والانسانية، بل والى علاقتها بالعلوم الطبيعية، وأدى الى كثير من اشكال التلاقى والتماس.

- البيئية والعبورية :

هذا عن البيئية، أما العبورية فتتمثل فى حقيقة ان التكنولوجيات الجديدة والبازغة تكون بطبيعتها عابرة لقطاعات النشاط البشرى المختلفة. فالتكنولوجيا الحيوية والهندسة الوراثية مثلاً، بالإضافة الى الروابط البيئية مع التكنولوجيات الاخرى كالمواد والمعلوماتية والمخ والطاقة، تخدم فى قطاعات الزراعة والطب والدواء والبيئة بشكل مكثف. ولا نحتاج الى التذليل على ان تكنولوجيا المعلومات تخدم فى كل قطاعات النشاط البشرى، بشكل غير قابل الا للزيادة المضطربة. وقد ادت عبورية التوظيف الى التأثير فى عبورية تنظيم الانشطة التكنولوجية، فظهرت الشركات عابرة القوميات والقارات، بكل ايجابياتها وسلبياتها، وصارت ميزانيات بعضها اكبر من ميزانيات العديد من الدول الصغيرة بل والمتوسطة،
مجتمعة!!!

أعطتنا التكنولوجيات الجديدة من المفاهيم والوسائل ما مكنا من الاقتراب المنظومى من المشاكل وطرق حلها. كما مكنتنا من فهم التعاضدية synergism،

- المنظوماتية والتعاضدية :

التي تجعل المحصلة اكبر من مجموع الاجزاء. اننا نتعامل مع منظومات صغيرة وكبيرة، أكبرها منظومة الكون. نجدها على مستوى المجتمع ومؤسساته، والأنشطة وتداخلاتها مع غيرها والكائنات الحية وعلاقاتها..... الخ. كل ذلك يستدعي الرصد والتحليل، اللذان مكنتنا التكنولوجيا من القيام بهما، بل وتحليل منظوماتها نفسها وطبيعة تطورها أيضا.

لقد خدمت تكنولوجيا المعلومات بشكل خاص كثيرا في هذا المجال، الذي ينتظره الكثير من التطور والازدهار. وأعتقد أن تكنولوجيا المخ، الذي يحل المنظومات، وينشئ الجديد منها ستساعد كثيرا في هذا الازدهار. ويلزم لذلك طبعا ان نتوصل الى فهم أفضل للمنظومة المخ، وتجلياته المسماه «بالعقل»، بكل ما تستوعبه من «مدخلات»، وتنتجه من «مخرجات»، وما تمارسه من «علاقات» بين مكوناتها، وبينها وبين العالم الخارجى.

إن المنظوماتية والتعاضدية تستوعبان مفهوم الشبكية، الذى يؤدى الى تواصل المنظومات وتحت المنظومات فى قضاء معرفى، سيستدعى اللجوء الى الكمبيوترات العملاقة، فائقة السرعة والقدرة الاستيعابية للتعامل معه، والمأمول، إن لم يعد الأمر تفكيراً بالتمنى، Wishful thinking، أن يساعدنا ذلك على حل المشاكل الكوكبية، او الى منع حدوثها، مع زيادة القدرة على توقعها واستشراف سبل التحول السلمى بعيدا عنها. ولا أعنى بذلك المشاكل السياسية فقط، بل الاقتصادية والاجتماعية والبيئية أيضا!!!

- الهندسة والتوجيه :

الهندسة عموما، والهندسة الاستكشافية بالذات، والقدرة المتزايدة على التحكم والتوجيه، يعدان من الملامح الرئيسية للتكنولوجيات المتقدمة والبارغة. وهما يستهدفان فى كل شىء الوصول الى الاسرع والأكثر رشاقة وذكاء والأكبر توأصلا مع المنظومة الذى ينتمى اليها (faster, smarter and connected). ورحلات الفضاء، التى وضعت الانسان لأول مرة فى التاريخ فى مكان آخر فى الكون غير الأرض، تعد نموذجا ضخما على ذلك: والمواد الجديدة المفصلة حسب الطلب، والهندسة الوراثية الموجهة.. الخ، كلها نماذج على ذلك أيضا، تختصر الزمن فى وقت تزداد فيه أهمية اقتصاديات الوقت، وتزيد الكفاءة مع الحرص على الكيف quality والجودة، وتلائم الهدف فى تواصل محسوب ودقيق. ولا ننسى تجلى ذلك فى المعلوماتية وثورة الاتصال وتبادل المعلومات. إن الهندسة والتوجيه يعدان ملمحاً أساسيا فى هندسة المستقبل (أحمد شوقى، ١٩٩٣).

يحدد فاروق الباز منطقة الهبوط على سطح القمر بالضبط، ويحدد علماء الوراثة الجين الذي ينقل الى منظومة وراثية جديدة، ويحسنون طرق نقله الى مكان محدد، ويصمم علماء المواد والأجهزة الدقيقة التركيب ثلاثي الابعاد لما يريدون انتاجه، ويختبرون اداءه قبل الانتاج باستخدام الكمبيوتر، ويشغل مهندسو المعلمات شبكاتهم واتصالاتها على نفس الأسس. ولا حدود للطموح في هذا المجال، وإن كنا أقل كفاءة بشكل بشع، في كافة أشكال الهندسة المجتمعية، التي يرفضها البعض، خوفا من التحكم في البشر.. وهذه قصة أخرى.

- النقد والتقدم :

ذكرنا ان النقد هو روح العلم، العامل على تطوره. وهو بنفس الدرجة روح العلم التقنى والتكنولوجيا، كطريق للتطوير وزيادة الكفاءة والجودة. إن النقد والتطوير المستمرين يؤديان الى ملمح هام آخر، هو التقدم السريع في التكنولوجيا ومنتجاتها، ومشاكل واقتصاديات الاحلال في كل مجالات استخدامها. وهذا هو ثمن التقدم، وموضوع لحوار كبير بين علماء إجتماع العلم والتكنولوجيا، وخبراء التنمية عموما، بالنسبة للدول النامية (العالم الثالث) بالذات، حيث يرتبط بالتنافسية في سوق كوكبي شرس.

وإذا كنا في موضع سابق قد ذكرنا المردود الثقافي للتقدم العلمي، فإن مردود العلم التقنى والتكنولوجيا شديد الارتباط به، وكبير الأهمية في حد ذاته. يكفي أن نذكر المصطلحات، التي اخترناها للتعبير عن الملامح التي رصدناها في مشهد التكنولوجيا، لتتعرف على هذا المردود. هل يمكن ألا يكون لمفاهيم الاختراق والبيئية والعبورية والمنظوماتية والتعاضدية والهندسة والتقدم مردودا ثقافيا هائلا؟ لقد تأثرت كل أنشطة الانسان المادية والفكرية والابداعية بهذه المفاهيم.. وهذه هي الثقافة في أجلى معانيها. لقد كان هذا هو الحال دائما. فبعد أن وصف الانسان العصور بالمواد التي يصنع منها أدواته (الحجرى والبرونزى مثلا)، نعيش اليوم في عصر السرعة او عصر الفضاء والانترنت والرقمنة digitalisation والنشر الالكترونى، ونصف القرن القادم بأن عصر التكنولوجيا الوراثة، وأكد أيضا أنه عصر المواد الجديدة، متجاوزا بذلك التعصب الضيق للتخصص !!!

بعد هذه الرحلة الطويلة لاستكشاف ملامح المشهد الحالى والمستقبلى لثورة العلم والتكنولوجيا، التي أرجو ألا تكون قد أجهدت القارئ كما أجهدتنى، سنحاول أن نجتمع خيوطها في إجتهد أخير حول «مغزى القرن العشرين».

III . مغزى القرن العشرين:

كثيرا ما يوصف القرن العشرون بالقرن القصير، عندما ينظر الى البداية والنهاية على شكل الأحداث الكبرى التى تحددهما. لقد بدأ فى رأى البعض بالثورة البلشفية والحرب العالمية الأولى فى العقد الثانى من هذا القرن، وانتهى بسقوط حائط برلين والكتلة الشرقية فى نهاية الثمانينات. وهذا ما دعى أحمد بهاء الدين، بلماحيته المعروفة، أن يذكر ان روسيا قد حددت البداية والنهاية، فى نهوضها وسقوطها المدويين. وبصرف النظر عن طول هذا القرن أو قصره، فإن القوة الدافعة Driving Force التى تركها لنا، تتمثل فى الثورة العلمية والتكنولوجية، التى شهدها نصفه الثانى، وإن كان لها الكثير من الجذور والإرهاصات من قبل. لقد جسدت هذه الثورة مغزى القرن العشرين فى مبدئين أساسيين:

- أ - التفسير والتأويل Explanation and Interpretation
ب - الهندسة والتوجي Engineering and Orientation

هنالك اسئلة لا يمكن أن توصف الا بالأسئلة الكبرى، وكثيرا ما قدم البشر للإجابة عليها الأساطير والحكايات الخرافية، ذات الرموز والدلالات الثرية. لكن عصر العلم يقدم لنا شيئا مختلفا: الفروض والنظريات والحقائق، والقدرة على الاختبار والتجريب، كلما كان ذلك متاحا. لقد شهد القرن العشرون جهودا علمية مكثفة لتقديم الاجابات والتفسيرات لأهم الاسئلة الكبرى؛ اسئلة الأصول: أصل الكون والمادة- أصل الحياة وتطورها- أصل الانسان ونشأة الوعى. لقد ذكرنا وجود الكثير من الإرهاصات القديمة قبل ذلك، لكن الثورة العلمية والتكنولوجية، بما قدمته من قدرات تجريبية وتحليلية، اسست علوما «منضبطة» للإجابة على هذه الاسئلة، بعد أن كانت محاولات الاجابة تقتصر على الجهود الفكرية والفلسفية والموروثات الثقافية فى كثير من الاحيان.

كما أن القرن العشرين قدم لنا، وهو على وشك الرحيل، مدخلا مذهلا لتفسير، او اعادة تفسير الظاهرة البشرية (أحمد شوقى، ١٩٩٨)، باعتبار انها تعرضت دائما لمحاولات التفسير. إن المعامل ومراكز البحث تشغل باستكمال خريطتين هامتين لاعادة التفسير المذكورة، حيث تقوم بخريطة البرنامج الوراثى أو الجينوم البشرى Human Genome Mapping .

والعقل البشرى Human Brain Mapping. ودون دخول فى التفاصيل، نجد ان الخريطة الاولى، التى يتم انجازها خلال مشروع عملاق، تحدد برنامج

١- التفسير والتأويل :

القدرات الخاصة بالتوارث البيولوجي، وسوف ينتهي العمل فيها مع مطلع اللحظة الريباعية القادمة، تقريبا. أما الثانية، فستقدم صورة واضحة عن طبيعة عمل المخ، وكيفية ممارسته للتوارث الثقافي، باعتبار أن الإنسان هو الكائن الوحيد ذو الوارثتين. انهما خريطتان للبنية الأساسية (الجينوم) والبنية الفوقية (المخ)، ستؤثر نتائجهما على معرفتنا بأنفسنا، بصورة ما كان من الممكن أن تدور في خلد سقراط عندما قال: «اعرف نفسك». وهي معرفة ستؤثر على حياة الأجيال القادمة، ورعايتها الصحية وتعليمها ومتوسط أعمارها، الذي من المرشح ان يتجاوز المائة.

ومع ذكر ان الانسان ينفرد بالتوارث الثقافي، فإن ذلك يعنى انه ظاهرة تاريخية. واليوم، يقدم لنا القرن العشرون نموذجا واضحا «للتفسير العلمى التكنولوجى، للتاريخ، لن يمكن أن نتغاضى عنه فى المستقبل، بل وسيدفعنا الى إعادة قراءة بعض أحداث الماضى.

ومما يؤسف له، أن أوضح الأمثلة على ذلك تتعلق بالحرب، التى تعد أكبر وأسوأ مجال لتوظيف منجزات العلم والتكنولوجيا. فعندما ظهرت الصواريخ بعيدة المدى، قال هتلر أن أوروبا قد صارت أصغر من أن تكون ميدانا للحروب التالية. وعندما امتلكت أمريكا القنبلة الذرية، أصر ترومان على تجربتها فى اليابان، رغم عدم ضرورة ذلك بالنسبة لسير الحرب. وعندما أعلن ريجان برنامج «حرب النجوم»، بميزانيته الهائلة اللازمة لتغطية الإتفاق عليه، أدرك الإتحاد السوفيتى عدم القدرة على ملاحقة سباق التسلح. لقد كان البرنامج غير واقعى أو عملى فى بعض أهدافه، لكنه أستخدم بذكاء سياسى كبير، لإستعراض العضلات العلمية والتكنولوجية أمام الخصم. ومما يذكر أن هذا الخصم، كان قد أزعج أمريكا كثيرا عندما أطلق «سبوتنيك»، لكنه إنهار بعد أن أطلقت أمريكا كل قدراتها الإبداعية، علميا وتكنولوجيا، ووظفتها إقتصاديا وسياسيا و«إعلاميا». ولا تخلو اللحظة الراهنة من مثال «مؤلم» على ذلك. ألم تقرر أمريكا البقاء فى الخليج، بدعوى إمتلاك العراق للامكانيات العلمية والتكنولوجية الخاصة بإنتاج أسلحة الدمار الشامل؟ ثم، ألم تقع الكارثة بسبب سوء إستخدام العراق لامكانياته، الحقيقية أو المدعاة، ضد شعب شقيق؟

ومادما قد إتفقنا على أن الإنسان ظاهرة تاريخية، وأن التاريخ تكتبه القوة، فما هو مفهوم القوة، الذى يمكن أن نرصده ضمن حصاد القرن العشرين؟ لم تعد القوة هى القدرة على ممارسة العنف؛ أو إمتلاك الثروات والموارد. لقد صارت

القوة في المعرفة (ألفين توفلر، ١٩٩٠). والرصيد الأكبر لأي فرد أو مجتمع، هو الرصيد المعرفي، الذي يحسن توظيفه. لقد صار التقدم العلمي والتكنولوجي معتمدا على كثافة المعرفة، ويبقى أن نأمل في التوصل الى «كثافة الحكمة»، التي تساعدنا على التوظيف السليم لهذه المعرفة. ومن حقنا أن نتساءل عن العقبة أمام ذلك؟ هل لكوننا، بعد كل هذه القدرة على التفسير، التي بلغت ذروة مسيرتها في اللحظة الرباعية الحالية، لم نستطع أن نفسر بشكل مرض أمرا واحدا، يعد في حد ذاته خلاصة المعرفة والحكمة؟ هذا الأمر هو الحقيقة، الهدف المراوغ للفلاسفة والعلماء والبشر جميعا!!!

ب - الهندسة والتوجيه :

سبق أن ذكرنا «الهندسة والتوجيه» كملح في مشهد التكنولوجيا، والآن نذكرهما في إطار الحديث عن مغزى هذا القرن، وثورته العلمية والتكنولوجية.

يشمل مبدأ أو مفهوم الهندسة هنا كل الأنشطة البشرية، الفكرية والتنظيمية والمادية، على حد سواء، فنحن نمارس بشدة هندسة الفكر وتوجيهه. وإلا فماذا تفعل المؤسسات الإعلامية الضخمة، ودينامياناتها التي ترفض الإنقراض، في عالمنا؟ لقد كانت هندسة الفكر تمارس دائما ومازالت، من خلال التربية والتعليم بكافة أشكالهما المجتمعية، الاسرية والمدرسية والسياسية.. الخ. لكنها لم تمارس من قبل بهذا الشكل الكوكبي الشرس. ولم تتح لها من قبل الوسائل الموجودة حاليا، من مختلف أشكال البث المعلوماتي، الإعلامي والإعلاني والتوجيهي والإستقطابي.. الخ.

وعموما، بعيدا عن هذه السلبيات، هنالك محاولة لما يسمى «بعلم الأفكار»، الذي يدرس كيفية نشأة الفكرة وتطورها وقبولها وإنتشارها.. الخ (أرون لينش، ١٩٩٦). وهنالك الرغبة في أن تؤدي هندسة الفكر الى «وحدة المعرفة»، التي تزول فيها الحواجز بين العلوم والفنون والآداب، من العقل المثقف، وفي ثقافة المجتمع (ادوارد ويلسون، ١٩٩٧).

وتتصل بهندسة الفكر، المخاوف الخاصة بهندسة الهوية، وتوجيهها العمدي الى أن تفقد خصوصيتها. هذا الأمر الشائع في الدول الأقل تقدما، لا يخلو من خطاب بعض الدول المتقدمة، مثلما هو الحال بالنسبة لموقف فرنسا حيال ما تعتبره هيمنة ثقافية أمريكية. ومع ذلك، فنحن نشهد الآن نموذجا فريدا لهندسة الهوية طوعا لا كرها، بناء على قرار موضوعي مدروس. ان الاتحاد الاوروبي، الذي وحد عملته، يعمل على إعادة هندسة هويات شعوبه، سعيا وراء «هوية

أوروبية، لا يفترض بالضرورة ان تلغى الخصوصية تماما. ليس هذا بالأمر السهل، لكنه يستحق الإعجاب، عندما ننظر الى «هوية طبيعية» شكلها الزمان والمكان، التاريخ والجغرافيا، ويعمل أبنائها بكل همة ونشاط على هدمها وتركها للأكل. قد لا يكمن سبب ذلك في التخلف العلمي والتكنولوجي، لكنه يكمن بالطبع في غياب المنهج العلمي عند هؤلاء، الذين لا أحتاج الى تسميتهم لعرفهم.. فنحن منهم.

تأتى بعد ذلك هندسة الأنشطة المؤسسية والمجتمعية، بل والفردية. وهذه الهندسة تحدد وتنظم العلاقات بين البشر، محليا وإقليميا وعالميا. انها تتطرق الى تقسيم العمل، والوضع الاجتماعي والنشاط السياسي.. الخ ومن تجلياتها الثقافية، المتصلة بهندسة الفكر والهوية، تحديد «الأنا» و «الآخر»، وطبيعة العلاقات السلمية أو الصراعية مع هذا الآخر. ومع سرعة الإنتقالات والإتصالات وتبادل المعلومات، تمتد الأنشطة والعلاقات المختلفة لتغطى الكوكب كله. وتظهر النخب عابرة القوميات، التي تتعامل مع شبيهاتها في كل مكان بالمعمورة، وتنتمى اليها بأكثر مما تنتمى الى مجتمعاتها.

وفي نفس الوقت، تظهر النخب التي تخدم المؤسسة التي تعمل فيها، بأكثر مما تخدم المجتمع. وأوضح مثال على ذلك، المؤسسات العلمية والتكنولوجية. لقد تغير مفهوم العالم الباحث عن «الحقيقة»، الى مشغل بالعلم ينتج المعرفة ويوظفها لصالح المؤسسة، حتى ولو كان ذلك في غير صالح المجتمع او البشرية. هكذا تراكمت اسلحة الدمار الشامل وملوثات البيئة والمنتجات الترفيه والاستهلاكية، التي كان من الممكن أن تحل استثماراتها الكثير من المشكلات في عالمنا. وهكذا نتج الجوع والفقر لسوء التوزيع، وليس لعدم كفاية الإنتاج.

وامتداد الأنشطة على مستوى الكوكب، هو احد تجليات الكوكبة وهندستها المتزايدة. والكوكبة Globalisation، هدف مراوغ يرى فيه البعض حلما بشريا طال انتظاره، ويرى فيه البعض الآخر كابوسا لا يتمنى تحققه. وهي تفرز التوحد والتشتت، والتسامح والتطرف، والصدارة والتهميش (زيجمونت باومان، ١٩٩٨). لقد امتلأت الساحة بمناقشات حولها، وحول الطريق اليها، وجوانبها الاقتصادية والثقافية والسياسية. وإذا كان البعض يطرح بشدة مفهوم الطريق الثالث على مستوى الفكر والفعل السياسيين، للتوفيق بين آليات السوق والبعد الاجتماعي، والدخول في مرحلة جديدة تتخلص من ثنائية «الصراع الحتمي» بين الرأسمالية

والإشترابية (السيد يسين، ١٩٩٩)، فهل من «طريق ثالث» بين العزلة والكوكبة؟ لقد جاءت الكوكبة بأمر مستحقة القبول كالمقرطة والشفافية، وأخرى تستحق الرفض كالهيمنة وحق التدخل والمعايير المزدوجة.

لقد جاءت بما أسمته النظام العالمي الجديد، والأحادية القطبية. والطريق الثالث الذي نرجوه، يجمع بين السيادة والشراكة، والشفافية والخصوصية. ويأمل في نظام «علمي» جديد، تستفيد فيه البشرية من منجزات العلم والتكنولوجيا بشكل أكثر عدلا. وتتم إدارة الكوكب بتعددية تتسع لرأى الجنوب ورؤيته للمستقبل.

وأخيرا، نأتى الى هندسة المستقبل. ينتهى القرن العشرون، والبشرية أقدر على صياغة مستقبلها عن أى وقت مضى. وهذه مسئولية ضخمة، مكنتنا منها ثورة العلم والتكنولوجيا، التى أفضنا فى الحديث عنها. وللمستقبل عند الحديث عن صياغته مفهوم مختلف. فإذا كنا نصنعه الى المدى القصير والمتوسط والبعيد، فالقياس هنا ليس بالمدة الزمنية ولكن بدرجة الاحتمال (موسوعة مستقبل العالم، ١٩٩٦). فالأمر اليقيني التحقق، أو ذو الاحتمال الكبير، يقع فى اطار المستقبل القريب، ولو كان متوقعا بعد مدة طويلة. والأمر غير المتوقع، أو الذى لا يمكن توقعه، يعد مستقبلا بعيدا، ولو حدث بعد لحظة. أما هم الدراسات المستقبلية الأساسية، فهو يتعلق بالمستقبل المتوسط الذى يمكن التخطيط له، ووضع السيناريوهات لبدائله، والتأثير فى مجرياته. إن الكثير من منجزات العلم والتكنولوجيا تخدم فى الدراسات المستقبلية، بصورة تؤكد كون الثورة التى أتت بها، تمثل أهم حصاد ومغزى للقرن العشرين، لأنها تخدم فى صياغة مستقبل ما يليه من قرون!!!

وبعد، فقد تتهم هذه الكراسة «بالتحيز، للعلم، وهى تهمة لا ننفىها. فالأمر لدينا يستحق بعض التحيز، دفعا للتقدم فى هذا المجال، الذى لا يمكن هندسة مستقبلنا بدونه. ومع ذلك، فى طياتها دعوة «لوحدة المعرفة، وتكاملها وهى دعوة ليست بعيدة عن العلم، لأنها نجمت عن استخدام المنهج العلمى. كما قد تتهم الكراسة بتعظيم شأن التكنولوجيا، وهذا ما لا ننكره. لكن مفهوم التكنولوجيا، مثله كمفهوم العلم، يمتد ليشمل ثقافة البشر كلها. ولو سئل كاتبها عن أهم التكنولوجيات التى تركتنا «اللحظة الرباعية، الحالية فى حاجة الى تجويدها، بل لقال إنها وتثيرها هى «تكنولوجيا المعرفة». تكنولوجيا قادرة على هندستها، استيعابا وإدارة وتوظيفا (محمد رؤوف حامد، ١٩٩٨) تكنولوجيا تستطيع تجسير الفجوة بين

الفكر والفاعل، (أحمد شوقي، ١٩٩٤). هذه هي أهم تكنولوجيات هندسة المستقبل. وفي هذا فليتنافس المتنافسون.

أحمد شوقي

مراجع للإستزادة :

دوريات ومجلات بالعربية :

شوقى ، أ. (١٩٩٨) : «الجينوم، مشروع يقرأ تاريخ وراثه البشر - محاولة لإعادة تفسير الظاهرة الإنسانية، مجلة علوم وتكنولوجيا (العدد ٦٠، ص ٢٢) - معهد الكويت للأبحاث العلمية - الكويت.

يسين ، أ. (١٩٩٩) : الطريق الثالث : إيديولوجية سياسية جديدة ، مجلة السياسية الدولية (العدد ١٣٥، ص ٧٣) - مركز الدراسات السياسية والإستراتيجية - مؤسسة الأهرام - مصر.

Lugar, R. & J. Woolsey (1999) : The New Petroleum, Foreign Affairs (Vol. 78, No. 1, p. 88), Council on Foreign Relations, USA.

National Geographic (1998) Millenium Supplement: Population (Vol. 194, No. 10), National Geographic Society, UK.

إيرليش ، ب ، د. د. أرنشتين (١٩٩٧) عقل جديد لعالم جديد (ترجمة : أحمد مستجير) المجمع الثقافى (أبوظبي) الإمارات العربية المتحدة.

حامد ، م . (١٩٩٨) إدارة المعرفة، سلسلة إقرأ (العدد ٦٣٧) - دار المعارف - مصر.

دفييز ، د . (١٩٨٦) المكتبة المدرسية الشاملة (ترجمة : أحمد عيسوى، عونى أبوشنب) - دار البحوث العلمية للنشر والتوزيع - الكويت.

شوقى ، أ. (١٩٩٢) هندسة المستقبل (سلسلة : المستقبل بعيون علمية) - المكتبة الأكاديمية - مصر.

شوقى ، أ. (١٩٩٣) العلم ثقافة المستقبل (سلسلة : المستقبل بعيون علمية) - المكتبة الأكاديمية - مصر.

شوقى ، أ. (١٩٩٧) الهندسة الوراثية فى مصر - فى : «مبادرة التقدم» - مركز الدراسات السياسية والإستراتيجية - مؤسسة الأهرام - مصر.

Ball, P. (1997) Made to Measure: New Materials for the 21 st Century, Princeton University press

Bauman, Z. (1998) Globalisation: The Human Consequences, Polity Press.

Boulding, Kenneth (1964) The Meaning of The Twentieth Century, The Great Transition.

دوريات ومجلات بالإنجليزية :

كتب بالعربية :

كتب بالإنجليزية :

- Coates, J. (1998) The Next Twenty - Five Years of Technology : Opportunities and Risks, In : "21 st Century Technolgies, Organisation for Economic Co-operation and Development, 1998, P.33", OECD.
- Coates, J. & A. Hines (1997) 2025; Scenarios of us and Global society Reshaped by Science and Technology, Oak Hill Press.
- Dasgupta, S. (1996) Technology and Creativity, Oxford University Press.
- Eldredge, N. (1999) The Pattern of Evolution, W.H.Freeman and Company.
- Gray, David (1996) Future: Near-, Mid-, and Long- Term, In: "George Kurian, Graham Molitor eds. (1996) Encyclopedia of the Future, Vol.1, p. 358", Simon & Schuster Macmillan
- Hernandez, C. & R. Mayur eds (1998) Millenium: Rendezvous with Future, International Institute for Sustainable Future.
- Langton, C. (1990) In : Kevin Kelly, Designing Perpetual Novelty - Reality Club 2: Doing Science, (ed. John Brockman), Printice Hall.
- Lorimer, D. ed. (1998) The Spirit of Science: From Experiment to Experience, Floris Books.
- Sikorski, W. (1993) Modernity and Technology: Harnessing the Earth to the Slavery of Man, The University of Alabama Press.
- Tiles, M. & H. Oberdeik (1995) Living in a Technological Culture: Human Tools and Human Values, Routledge.
- Toffler, A. (1990) Power Shift: Knowledge, Wealth and Violence at the Edge of the 21 st Century, Panam.
- Toffler, A. & H. Toffler (1995) Creating a New Civilisation, Turner.
- Wilsen, E. (1998) Consilience: The Unity of Knowledge, Knopf.